المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد الثامن عشر، يونيو ٢٠١٧ م

الشاعر ابن هانىء الأندلسي ومميزات أشعاره

الدكتور محمد نصير الدين *

Abstract

Al-shaʿir Ibn Hani al-Andalusi Wa Mumayyajatu Ashʿarihi

Spanish poet Ibn Hani al-Andalusi is renowned as al-Mutanabbi of the West for his poetic artistry and unique context. He played a leading role in reawakening Arabic poetry in Muslim Spain. Ibn Hani largely delineated the Aqidah as well as the religious faith of the Fatimids in his poems. But he made such an exaggeration to eulogize Al-Mu'izz Lideenallah (the fourth Fatimid Caliph) that appears to be Shirk and Kufr. It seems that it is ascribed to him for his excessive support to the religious faith of Fatimid. However, as a poet of eulogy he was not entirely successful composing metaphors and allegories. The paper illustrates the exceptional characteristics of Ibn Hani's eulogy.

إن حركة الشعر العربي في الأندلس[١] ليست تختلف كثيرا من حركة الشعر العربي في المشرق و سائر الأقاليم. وأن البلاطات العباسية والأموية في بغداد ودمشق كانت محور الحياة الأدبية في حواضر المشرق، كذلك كانت دُور الأمراء والخلفاء هناك في الأندلس مَحجة الشعراء ومُنتجع رزقهم الأول ومبعث اهتماماتهم ومَثار أقلامهم وقرائحهم، ومقياسا أخيرا لإبداعهم وإخفاقهم. وقد حوّم الشعراء في الأندلس حول الموضوعات التقليدية من المدح و الهجاء و الرثاء و الوصف و الغزل والزهد والتصوف و سواها، غير أن الشعراء الأندلسيين أبدعوا فن الموشحات[٢] في عهد الخلافة الأموية في الأندلس. حتى

* الأستاذ المساعد، قسم العربية، جامعة داكا

إن الشعراء الأندلسيين أنفسهم كانوا يلقبون نابغيهم بأسماء المشارقة والمغاربة، فيقولون في ابن درّاج القسطلي[٣]: متنبي الأندلس وفي ابن هانئ الأندلسي: متنبي المغرب. ففي تلك البيئة الخصبة الثقافية والأدبية الأندلسية وُلد شاعرنا ابن هانئ الأندلسي وعاش فيها ونشأ وتأدب وبرّز في الشعر؛ فصار ابن هانئ ذا شخصية شعرية متميزة بسمات فنية خاصة.[٤]

هو أبو القاسم وأبو الحسن[٥] محمد بن هانىء بن سعدون الأزدى المهلبي المعروف بإبن هانىء الأندلسي، أديب شاعر مفلق، أشعرُ المتقدمين والمتأخرين من المغاربة وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق، وهو عربي الأصل من جهة أبيه إذ يُنسبُ إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي اشتهر بحروبه وأنتصاراته على الخوارج. فكان أبوه هانىء من سُلالة حفيده يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي والي المنصور العباسي على أفريقية أو من سُلالة أخيه رَوح بن حاتم واليها بعده، وكان أبو هانئ يستوطن أولاً في قرية من قري المهدية من أعمال تونس في شمال إفريقية، وكان شاعراً أديباً، ثم انتقل إلى إلبيرة و قُرطُبة ومنها إلى إشبيلية في الأندلس داعياً سرياً للمذهب الإسماعيلي هناك، ووُلد ابن هانىء في مدينة إشبيلية في سنة عشرين وثلاثمائة الهجرية المطابق بسنة اثنتين وثلثين وتسعمائة الميلادية (٣٢٠هـ/٩٣٢م أو في سنة٣٢٦هـ/ ٩٣٧م على اختلاف الروايات). وعُني أبوهانئ بابنه وبتربيته، ولم يلبث الإبن تدفّقَ الشعرُ على لسانه فلمَعَ اسمه وقرّبه منه حاكمُ بلدته. فنشأ ابن هانئ بين إشبيلية وقرطبة وإلبيرية نشأةً أديبة شعرية، وكثر تأدّبه في دار العلم في قرطبة، ثم استوطن إلبيرة فعُرف بالشاعر الإلبيري، فحصل حظاً وافراً من أدب العرب ودراسة لغتهم وأشعارهم؛ وكان حافظاً لأشعارهم وأخبارهم. ثم اتصل بصاحب إشبيلية وحَظِيَ عنده، غير أنه أكثر من الانهماك في الملاذ، وأظهر استهتاراً وزَنْدقَةً، ونَقِمَ عليه أهلُ إشبيلية ذلك وجلب عليه سوءَ سيرته وصراحته في القول سُخطَ الناس، فاتهموه بالأخذ بآراء فلاسفة اليونان والمذهب الإسماعيلي متابعاً في

ذلك أباه وامتدت نقمته إلى الحاكم الممدوح الذي يرعاه، فنصحه أن يبتعد عنهم من إشبيلية مدة، مخافة أن يتهمه الناس بمشاركته له في هذه الآراء. وكان عمره وقتذلك سبعة وعشرين عاما.[٦]

ثم رحل ابن هانئ إلى إفريقية والجزائر في عُدوة المغرب ولحق بجوهر الصقلي، عتيق المنصور الفاطمي وقائد جنده وكانت جيوش الفاطميين تتوغل فيها بقيادته وقدم إليه ابن هانئ إحدي مدائحه بقصيدة مشهورة[٧] حين فتح مصر ويمّم بجيشه مصر من القيروان، ولكنه لم يثبه الثواب الذي كان ينتظره، حتى تحول إليه بقلبه، وآمن بعقيدته الشيعية. وبعد أن أخذ منه مائتى دينار لإلقاء قصيدة امتدحه بها ارتحل إلى المسيلة بالجزائر وكان يحكمها مواطناه جعفر بن علي بن فلاح بن أبي مروان المعروف بابن الأندلسية، و أخوه يحيى ابن علي بن حمدون الأندلسي، وكانا أميرين في المسيلة، إحدى مدن الزاب في المغرب الأوسط للمعز الفاطمي، فانتجع بابهما ولزم رحابهما فأكرما وِفادتَه، وقد بالغا في إكرامه والإحسان إليه فمدحهما ابن هانئ بعدة قصائد مشهورة.[٨] ولما سمع به المعز أبوتميم معد بن إسماعيل بن المنصور الخليفة الفاطمي[٩] طلبه واستدعاه فاستقدمه فجاءه فأكرمه وألحقه ببلاطه وأحسن نزله وبالغ في الإنعام عليه وأسبغ عليه نعمته خاصة حين رأه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجّج في مديحه بمبادئ المذهب. واتخذ أشعاره أداة لتسجيلها في صور مغالية غلواً شديداً وأقام عنده في المنصورية بقرب القيروان مدة قصيرة.وكان ابن هانئ شاعراً مبدعاً فأبدع في مدائحه، كما أبدع في مديح قواده وخاصة في جوهرالصقلى فاتح مصر.[١٠]

و لما جمع المعز أسبابه وتوجه إلى مصر وذهب إلى الديار المصرية عام واحد وستين وثلاثمائة الهجري المطابق عام اثنين وسبعين وتسعمائة الميلادي (٣٦١هـ/٩٧٢م) ليستقر به المقام في القاهرة، شيّعه ابن هانئ وكان في جواره ثم استأذنه في الرجوع إلى عياله ليأتي بهم ويَلحق به، فأذن له فخرج قاصداً بلده، وتركه فتجهز وتبعه وعاد إلى المغرب

لإحضار أسرته والالتحاق به. فلما وصل في طريقه إلى برقة أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أيامًا فقيل إنهم عربدوا عليه فقتلوه وقيل بل خرج من عندهم سكرانًا فنام في الطريق فاصبح ميتا. وقيل: إنه وُجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكة سراويله. وأغلب الظن أن ابن هانئ قد قتل قتلا سياسيّاً على يد بعض أنصار حكومة قرطبة المناهضة للفاطميين فاختلفت الروايات في أمرمقتله. وعلى أية حال، قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م بعد أن بلغ من العمر اثنتين وأربعين سنة. أو ستّاً وثلاثين على خلاف في ذلك.[١١] على أنّ لسان الدين بن الخطيب يقول: إنّه سَكِر ونام عرياناً، وكان البرد شديداً، فَفَلَجَ. وقد يكون لبني أميّة يد في مقتله لأنّه كان يَقذعُهم في هجائه لهم، ويُؤلِمهم في أعراضهم، كما كان يهجو العباسيين لضعفهم وانصرافهم إلى المَلَذات، وقعودهم عن نصرة الدين، وتسلّط الروم على بلادهم.[١٢] ولم يُعلم سببُ موته ولا فاعلُه. وقيل كان موته سنة خمس وستين وثلاثمائة الهجرية (٣٦٥هـ/٩٧٥م) بالغاً من العمر ستة وثلاثين عاماً. ولما بلغ المعز خبر قتله حزن وتأسف عليه وقال "لاحول ولاقوة إلا بالله هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقّدر لنا ذلك".[١٣]

كان المغاربة يلقبون ابن هانئ بمتنبي الغرب. ولقد نُفي من اشبيلية لأخذه بمذهب الفلاسفة و كان شيعياً يذهب في عقيدته مذهب الفاطميين، وكان متشيعاً ومؤمناً بالعقيدة الاسماعيلية وابوه كان من دعاتهم السريين في الأندلس. والأندلس إذ ذاك في عصرها الذهبي تجتاز أخصب مراحلها الثقافية والحضارية والأدبية، ويقول ابن خلكان" وكان أبوه شاعراً أديباً، فنشأ ابنه بين إشبيلية وقرطبة وإلبيرة نشأة أدبية شعرية، و انصرف إلى اللهو والمجون وانتهى به التفكير إلى الاعتقاد بإمامة الفاطميين واتُّهم بالزندقة والكفر لمشاركته في مذاهب الفلاسفة. ولعله صرح بشيء من ذلك في شعره. وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس لأنها كانت تمثل خطراً على هذه الحكومة.[١٤] ولابن هانئ ديوان شعر. ومن يرجع إلى ديوانه يجد أكثره في المديح، ومعانيه فيه هي

نفس المعاني التي نلقاها في الشعر العربي عند العباسيين ومن قبلهم، وإن كنا نلاحظ في مديحه للمعز وقوفاً طويلاً عند صفاته الإمامية، وشعره في هذه الناحية مرجع مهم لمن يبحثون في العقيدة الفاطمية وكل ما كان يؤمن به دُعاتهم من صفات عُلوية في الإمام، إذ كانوا يعتقدون بأنه معصوم وأنه عالم بالظاهر والباطن وأنه يكون شفيعاً لأوليائه يوم القيامة، ولا يزالون به حتى يضعوه فوق البشر ويُضيفون عليه من القدسية والجلال ما يجعله روحاً من الله، بل ما يجعله سبب الوجود وعلة الحياة.[١٥] ولولا ما في ديوانه من الغلوّ في المدح والإفراط المفضي إلى الكفر، لكان ديوانه من أحسن الدواوين. كان ابن هاني معجباً بالمتنبي، ولكنه أنكر عليه النبوّة، وكان مثله يفرط في المغالاة حتى يجاوز الحقائق المعقولة في الدنيا وهو مثله يتغزّل بالبدويات الحسان، غزلاً ضعيف العاطفة، ولا تظهر في شعره إلا عاطفته الدينية، وخصوصاً الشيعية الإماميّة، فهي تحتدم في مدحه حتى ليتضاءل عمل العقل معها، فإذا هو يُغالي مغالاة مستنكرة، فيحمله اعتقاده بالحلولية على أن يجعل المعزّ " إلهاً".[١٦]

و قد تعوّد بعض المترجمين لابن هانئ أن يذكروا في سبب هجرته للأندلس أنه كان متهماً بالفلسفة كثير الانهماك في الملذات. وهذان السببان غير مقنعين، فالفلسفة لم تكن في أيام ابن هانئ تهمة توجب المطاردة، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس كانوا يشتغلون بها في تلك الآونة، التي عرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات وتقدير كل العلوم. كذلك لم يكن الانهماك في الملذات مما يسبب إخراج أندلسي من بلده؛ فقد كان حب الشراب والسماع والمتاع مما يشيع بين الأندلسيين في أكثر الأحايين، ولم يكن ابن هانئ بدعا بين مواطنيه في ميله إلى الملذات، لهذا كله يرجح أن تكون هجرته لسبب سياسي وهو اتصاله بالدعوة الفاطمية. ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية، ومعرفته بمصطلحات الشيعة كما يدل على ذلك شعره– لعل ذلك كله مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هانئ من الأندلس.[١٧]

مميزات شعر ابن هانىء الأندلسي

ديوان شعره: و ديوان ابن هانىء حافل بالعديد من القصائد الطويلة الجيدة وهي تصور فنه و حياته، و تأخذ مكانها المرموق في التراث الأندلسي. يقول ابن خلكان عند ذكر ديوان ابن هانيء: " و له ديوان شعر أجاد فيه كل الإجادة، لولا ما فيه من الغلو في المدح، و الإفراط المفضي إلى الكفر، لكان من أحسن الدواوين".

وقد طبع ديوان ابن هانىء عدة طبعات، بعضها في مصر، وبعضها في بيروت، و من أفضل طبعات ديوانه طبعة المعارف بمصر سنة ١٣٥٢هـ، و هي الطبعة التي حققها الدكتور زاهد علي الهندي، فقد عني المحقق بشرح الديوان شرحا لغويا واسعا مطولا، في نحو تسعمائة صفحة.[١٨]

أولا– المبالغة و المغالاة في المدح: إن الشاعر ابن هانيء الأندلسي كان مُرهَف الحسّ، الخبير بمواضع القول، الذي يتخذ لكل مقام مقاله–لم يجد من الأغراض الشعرية سوى المديح، فبعث قصائده في هذا الغرض– المدح–على الأخص شعرا صادقا مخلصاً. و قد محض الشاعر ابن هانيء الخليفة المعز غرر قصائده– في المدح– بأقواها و أجودها، وأروعها فصاحة و بلاغة، فعرفت هذه القصائد "بالمعزيات" وهي قصائد تمتاز بالروعة و القوة، و جودة التعبير و البراعة في الصياغة، وإحكام النسج،، مع مبالغة واضحة في المدح، وغلو ظاهر في الوصف. وللمعزيات تلك منزلتها و مكانتها الأدبية الرفيعة، من حيث الصياغة و الجودة وقوة البيان.[١٩]

وقد اتسمت قصائده هذه–المعزيات–بظاهرة هي ظاهرة الغلو والمبالغة في المدح، وذلك للعلاقة المتينة، التي كانت تربط بين الشاعر و ممدوحه. فالشاعر ابن هانيء كان شيعيا في مذهبه، مغاليا في عقيدته ولذا نراه ينحرف عن الصواب في بعض أبيات من شعره، ذلك حين يرى مثلا أن الإمام أو الخليفة الشيعي متصف بصفات النبي صلى الله عليه

وسلم، أو أنه أيضا معصوم عصمة الأنبياء ، وأنه مظهر نور الله،أو متصف بصفات الله– تعالى الله– عن ذلك علوا كبيرا.

وقد جاء مدحه للمعز صورة لعقيدته–هذه–يغلب على شعره في مدحه طابع الغلو الشديد، والمبالغة المفرطة، برفع الخليفة إلى منزلة الألوهية، أو بوصفه بأوصافها، ذلك أنه– أحيانا–يجعل لممدوحه ما لله من القدرة و الجبروت– أعاذنا الله من نزعات الشيطان، وزلل اللسان–.

كل ذلك ساعد على شيوع ظاهرة المدح أولا،ثم الغلو والمبالغة ثانيا، حيث نجد في شعر ابن هانيء الغلو الشديد، والمغالاة المفرطة إلى حد الخروج عن المألوف في صيغ المديح، وعبارات الثناء حتى ظهرت بوضوح على بعض أبيات من قصائده في الخليفة المعز–ظاهرة الغلو المستكره، والمبالغة الممقوته التي تفضي بصاحبها إلى غير الطريق القويم.[٢٠]

ومن أمثلة ذلك قوله من قصيدة طويلة له في مدح المعز:[٢١]

ندعوه منتقما عزيزا قادرا + غفار موبقة الذنوب صفوحا

وكقوله من قصيدة أخرى في المعز:[٢٢]

فارزق عبادك منك فضل شفاعة + واقرب بهم زلفى فأنت مكين

وكقوله مخاطبا الخليفة المعز مادحا له:[٢٣]

ما شئت إلاماشاءت الأقدار + فاحكم فأنت الواحد القهار

وكقوله:[٢٤]

فالكتب لولا أنها لك شهد + ما فصلت آياتها تفصيلا

وكقوله :[٢٥]

هو علة الدنيا ومن خلقت له + ولعلة ما كانت الأشياء

ومثل قوله:[٢٦]

أخشاك تنسي الشمس مطلعها + أنسي الملائك ذكرك التسبيحا

ثانيًا– فكرة الدور السبعية عند الإسماعلية في ضوء شعره: ويعتقد ابن هانيء اعتقاد الإسماعيلية وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم ينتظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعية، كل دور يُختم بإمام سابع نبي أومن الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسماؤه وصفاته، ومن هنا كانت تطلق علي ممثوله من الأئمة، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم. ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يمثلُ فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يمثل فيه نور نوح:[٢٧]

لو كنت آونة نبيا مرسلا + نشرت بمبعثك القرون الأولى

أو كنت نوحا منذرا في قومه + ما زادهم بدُعائه تضليلا

ويمثل فيه قبس موسى وشعلته وهداه:[٢٨]

من شعلة القبس التي عرضت له + موسى و قد حارت به الظلماء

من معدن التقديس وهو سلالة + من جوهر الملكوت وهو ضياء

يوضح علينا أن المعز شبيه النبي موسى عليه السلام عندما رأى نارا وقال لأهله إني ذاهب لأتي لكم بقبس أو أجد عليها هدى.

ويمثل أيضا نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه و الأبرص و يحي الموتى بإذن الله :[٢٩]

صورت من ملكوت ربك صورةً + وأمدها علماً فكنت الرّوحا

أقسمت لولا أن دعيت خليقة + لدعيت من بعد المسيح مسيحا

وكذلك يمثل نور الرسول صلى الله عليه و سلم المشاهد في كل نور بملكوت السماوات، في الشمس والقمر و الكواكب و النجوم. ويبلغ به الإلحاد في الدين أن يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز، بل يجعل الله يحل فيه، بل لكأنه الله، جلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شئ من ترهاته إذ يقول في استحياء للمعز حين حلّ بقربة رقادة بجوار القيروان:[٣٠]

حل برقادة المسيح + حل بها آدم و نوح
حل بها أحمد المصطفى + حل بها الكبش و الذبيح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح

وكان ابن هانئ شاعراً فذاً بارعاً، وإنا لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبة التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الاسماعلية الضالة. وهو في رأينا يعدّ مسؤلاً إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة، وهو أيضاً إلى حد ما يعد مسؤلاً عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز: أنا ربّكم الأعلى، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه.

ثالثًا – كثرة التشبيهات و الاستعارات في شعره: وكان ابن هانيء يكثر من التشبيهات و الاستعارات أحيانا في أشعاره، و نفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي:[٣١]

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر + و أمدكم فلق الصباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعا + بالنصر من ورق الحديد الأخضر
وضربتم هام الكماة ورعتم + بيض الحدور ليث مخدر

وهو يتصور الجلاد وعراك الأبطال أو القتال ريحًا عاصفاً يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهبّ في الصباح المشرق الجميل وبالغ في التصور والتكلف ماشاء حتى تخيل السيوف شجراً له ورق وثمر وهم يجنون منه النصر والظفر،ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول، والقصيده تكتنف بأبيات رائعة.

رابعًا – الاعتناء بالألفاظ كثيرة الجلبة و القعقعة: وكان ابن هاني يُعنى باللفظ أكثر من عنايته بالمعنى، فيعتمد الألفاظ الكثيرة الجلبة والقعقعة وهذا ما جعل أبا العلاء المعرّي يقول حين سمع شعره: " وما أشبهه إلا برحى تطحن فروناً لأجل القعقعة في ألفاظه " يزعم بذلك، على حدّ قول ابن خلكان: أن لاطائل تحت تلك الألفاظ. ويرى ابن خلكان:

" أنّ أبا العلاء لم ينصف الشاعر بهذا المقال الذي حمله عليه تعصبّه للمتنبي " غير أنّه قبّح شعره لما فيه من الكفر وفساد العقيدة. وليس في هذا التقبيح ما يضير الشاعر لأن الفنّ الجميل لا يقاس على صحة العقائد وصلاح الشعر، فلا يمسّ الكفر وفساد العقيدة جوهر الشعر بشيء.

و منه أيضا قوله:[٣٢]

أقول دمي وهي الحسان الرعابيب + ومن دون أستار القباب محاريب

نوي أبعدت طائية و مزارها + ألا كل طائي إلى القلب محبوت

سلوا طيءٍ الأجيال أين حيامها + وما أجأ إلا حصان و يعبوب

خامسًا – استعمال غريب اللفظ و وحشي الكلام في شعره: وابن هانيء يتخذ أبا الطيب المتنبي مثلاً أعلى يحتذيه في شعره وينسج على منواله في المغالاة وقعقعة اللفظ، وجلالة الوزن وفي وصف الجيوش والمعارك، بل أنه يذهب إلى أبعد من تقليد المتنبي فقط، فكثيراً من رأه في شعره يقف على الأطلال متفقداً الحبيبة واصفاً الصحارى برمالها وحيوانها مستعملاً لذلك غريب اللفظ و وحشي الكلام مما دفع أبا العلاء إلى القول"ما أشبهه إلا برحي تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه". ومع ذلك لم يخل شعره من أثر الطبيعة الأندلسية الزاهية في شذرات من هذا الشعر من حيث لايعلق بها السمع، من مغالاته في المدح قوله جاعلاً الممدوح في مرتبة الألوهة أوقريباً منها:[٣٣]

ليست سماء الله ما ترأونها + لكن أرضا تحتويه سماء

نزلت ملائكة السماء بنصره + و إطاعة الإصباح و الإمساء

وقال من قصيدة يمدح بها القائد جوهرا، و يصف الجيش الذي غزا به مصر، ويودعه عند خروجه من القيروان:[٣٤]

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع + و قد راعني يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سد بمثله + فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

ومن قصيدة يصف فيها أسطول المعز، قوله:[٣٥]

أما و الجواري المنشأت التي سرت + لقد ظاهرتها غدة و عديد

قباب كما تزجي القباب على المها + ولكن من ضمت عليه أسود

سادسًا – الحدة في الصور الشعرية: وليس من شك في أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً في الفكرة وصدقاً في التجربة وحرارةً في الإحساس. أما حين تكون مبالغة يرفضها الذوق أو العقل أو الدين، فإنها تأتى سخيفة ساقطة، ككثير مما قاله ابن هانئ في ممدوحيه وخاصة المعز الفاطمي. وابن هانئ حاد كذلك في صوره الشعرية، فهو يوسع رقعتها ويبرز خطوطها، ويظهر ألوانها، ولا يعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخة أم هادئة، ولا يهمه أأتت الخطوط متناسقة أم متنافرة. فهو يقول مثلا في تصوير أكُولٍ:[٣٦]

يا ليت شعري إذا أومأ إلى فمه + أحلقه لهوات أو ميادين

كأنها وخبيث الزاد يضرمها + جهنم قذفت فيها الشياطين

وهذا من جميل التصوير، لأن المقام يحتمل المبالغة، فهو مقام سخرية تتحمل هذا التعبير " الكاريكاتيرى ". غير أن ابن هانئ في مقام آخر يصل في حدته التصويرية إلى درجة تفسد الصورة، ومن ذلك قوله في وصف ليلة، يصورها غادة أرسلت من ظلامها شعراً طويلا مسترسلا، وليست من أنجمها شنفاً في أذنها.[٣٧]

سابعًا – الحدة الفنية في الألفاظ و العبارات: وابن هانئ كذلك حاد في ألفاظه وعباراته، فهو يؤثرها فخمة ذات جرس عال ورنين واضع، وهو في كثير من الأحيان موفق في ذلك ومن هذا قوله:[٣٨]

رأيتُ بعينى فوقَ ما كنتُ أسمعُ + وقد راعنى يومُ من الحشر أروعُ

غداةَ كأن الأفقَ سُدَّ بمثله + فعادَ غروبُ الشمس من حيثُ تطلع

على أنه في أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرنين الواضح، إلى الصخب والقعقعة والإتيان بالغريب. وكان ابن هانئ يقتدى بالمتنبى تارة، ويقتدى بالمصنعين تارة

أخرى. فهو لا يثبت عند مذهب بعينه. ونستطيع أن نسلك في اقتدائه بالمتنبى عنايته في شعره بالغريب والقوافي الشاذة فهو ينظم على الثاء والخاء والطاء ونحوها من الحروف الصعبة حتى يثبت تفوقه. وإذا كنا لاحظنا في غير هذا الموضع على المتصنعين أنهم كانوا إذا عمدوا إلى التصنيع لفّوا ولفقوا فإننا نلاحظ ذلك نفسه عند ابن هانئ، إذ كان يأتي المعاني والأخيلة من بعيد، وكان يستر ذلك بما تعوده من ضخامة التعبير. ومن هذا قوله:[٣٩]

أصاحت فقالت: وقاجرد شيظم + و شامت فقالت: لمع أبيض مخذم

وما ذعرت إلا لجرس حليّها + ولا لمحت إلا بُرُى في مُخدّم

ثامنًا – الحدة في موسيقي شعره: وابن هانيء كما هو حاد في معانيه وصوره وألفاظه، حاد كذالك في موسيقي شعره، فهو يختار غالباً تلك الأوزان الطوال ذات التفاعيل الكثيرة والنغم الواضح والرنين العالي. ومن هنا كانت أكثر قصائده من الطويل والبسيط والكامل؛ وقليل من شعره هو الذي جاء على غير هذه الأوزان. وقلما نجد له شعراً من الأوزان القصيرة ذات الموسيقي البسيطة الهادئة. وكمايفعل ابن هانيء في الأوزان يفعل في القوافي، فكثير من شعره يختم بالقوافي الفخمة الشاذة التي تملأ الفم وتزحم السمع، بل إن قوافيه تأتي أحياناً على حروف لم تؤلف في القوافي كثيراً، كالثاء والخاء والطاء من الحروف الصعبة حتي يثبت تفوقه. ومن أمثلة حدة ابن هانىء في موسيقي شعره وزناً وقافية قوله:[٤٠]

لمن صَوالجانُ فوق خدك عابث + و من عاقدُ في لحظ طرفك نافث

و من مذنب في الهجر غيرك مجرم + و من ناقضُ للعهد غيرك ناكث

و قوله كذلك:[٤١]

ألؤلؤ دمع هذا الغيث أم نقط + ماكان أحسنه لو كان يلتقط

بين السحاب و بين الريح ملحمة + قعاقع وظبي في الجو تخترط

تاسعًا – كثرة المصطلحات الشيعية في قصائده: وأخيراً تبدو حدة ابن هانىء في أعماله الشعرية؛ فهي في الغالب قصائده. وأغلب تلك القصائد من النوع الطويل المفرط الطول، حتى إن بعضها يتجاوز المائتي بيت. هذه هي السمة الأولي من سمتيه البارزتين. أما الثانية– وهي المذهبية السياسية– فتبدو في كون ابن هانىء شاعراً مذهبياً، لايؤمن بالفن فقط. وإنما يستخدمه في تدعيم مذهب يميل إليه ويدعوله. فابن هانئ قد اتصل بالحركة الشيعية وهو في الأندلس، وكان السبب في خروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا. ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالا مباشراً بعد هجرته، وعمل للدعوة الفاطمية، فكان لسانها الناطق وداعيتها ذا الصوت الجهير. ومن هنا كثرت في شعره مصطلحات الشيعة وآراؤهم، وبدت في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم، واشتمل أسلوبه في كثير من المواطن على الحِجاج والجدل والتعليل والتدليل ومحاولة الإقناع المنطقي لا التأثير الوجداني. وربما لا تخلو قصيدة من قصائده في المعز، من عشرات الأمثلة على ذلك فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة:[٤٢]

إمام عدل وفى في كل ناحية + كما قضوا في الإمام العدل و اشترطوا

ويقول مشيرا إلى فكرة العصمة:[٤٣]

مؤيدا باختيار الله يصحبه + وليس فيما أراه الله من خلل

ويقول في فكرة ميراث آل البيت للحكم:[٤٤]

هو الوارث الأرض عن و الدين + أبِ مُصطفى و أب مُرتضى

ويقول في فكرة تقديس الإمام:[٤٥]

من شعلة القبس التي عرضت على + موسى وقد حارت به الظلماء

من معدن التقديس وهو سُلالةُ + من جوهر الملكوت وهو ضياء

عاشرًا – الأفكار الشيعية والسياسية في شعره: والأفكار الشيعية كثيرُة واضحة في شعر ابن هانئ، ويكفى أن نطالع قصيدة واحدة من قصائده في المعز الفاطمي لنستخرج عديداً من الأفكار والآراء الشيعية، ولندرك ببساطة تلك المذهبية السياسية في شعر ابن هانىء، بالإضافة إلى معالم فنه الأخرى. يقول شاعرنا في مدح المعز، ويذكر دخول الفاطميين مصر وفتحها على يد القائد جوهر:[٤٦]

تقول بنو العباس: هل فتحت مصر + فقل لبني العباس قد قُضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جوهر + تطالعه البشرى و يقدمه النصر

الحادي عشر – الأخذ ببعض أفكار المتنبي في شعره: ولما كان ابن هانئ أقرب إلى أبي الطيب المتنبي منه إلى أي شاعر آخر من شعراء الاتجاه المحافظ الجديد، لاتفاقهما في حدة الطبع أولاً، ودراسة ابن هانئ لشعر المتنبي وافتتانه بمذهبه ثانياً؛ كان من مظاهر ذلك أخذ ابن هانئ لبعض أفكار المتنبي، كقوله:[٤٧]

ألم يبد سرّ الحُب أن من الضَّنا + رقيبا وإن لم يهتك الستر هاتك

فإن هذا المعنى من قول المتنبي:[٤٨]

وإذا خامر الهوى قلب صب + فعليه لكل عين دليل

ومن أخذ ابن هانيء لبعض معانى المتنبي قوله كذلك:[٤٩]

إن ذلّ العزيز أفظعُ مرأىَ + بين عينيه من لقاء الحتوف

فهذا المعنى من قول المتنبي:[٥٠]

غير أن الفتى يلاقي المنايا + كالحالات و لا يلاقي الهوانا

الثاني عشر– التورط في اللفظ الغريب وتكرار المعنى الواحد: ثم تكرار المعنى الواحد في عدة مواضع أحيانا، ومن ذلك قوله:[٥١]

شهدت بمفخرك السماوات العلا + و تنزل القرآن فيك مديحا

ثم قوله في قصيدة أخرى:[٥٢]

من يشهد القرآن فيه بفضله + و تصدق التوراة و الإنجيل

ثم قوله في قصيدة ثالثة:[٥٣]

إن الخبير بكم أجد بخلقكم + غيبا فجرّد فيكم التنزيلا

و من ذلك أيضا قوله:[٥٤]

هو علة الدنيا ومن خُلقت له + ولعلةٍ ما، كانتِ الأشياء

ثم قوله في قصيدة ثانية:[٥٥]

من أجل هذا قدر المقدور في + أُمّ الكتابِ و كُوّن التكوين

ثم قوله في قصيدة ثالثة:[٥٦]

هو الوارث الدنيا و من خلقت له + من الناس حتى يلتقى القطر و القطر

ففي الختام، نلخص لما قدمنا في هذه المقالة المختصرة: أن الشاعر ابن هانيء الأندلسي لعب دورا هاما في تمثيل مرحلة نهضة الشعر في الأندلس حين استطاع الشعراء أن يخضعوا الشعر لشخصياتهم. وبعد أن الشاعر أظهر وبين عقائد الفاطميين وماقاموا به في حقل العلم والعمارة وتكوين الجيش والأسطول الذي قوى زمن المعز. وقد ورد مدحية المعز في ابن هانيء الأندلسي مع مبالغة واضحة في المدح وغلو ظاهر في الوصف. ولقد بالغ ابن هانيء في مدحه للمعز إلى حد الكفر في كثير من المواضع ونظن أن هذه المبالغات ناشئة من تعاطفه مع العقيدة الفاطمية، لاسيما العقيدة الشيعية الإسماعيلية في إمامهم وكان هو نفسه من تابعيه ومريديه. وقد يقال لابن هانيء الأندلسي متنبي الغرب وأنه نجح أحيانا. ولم يستطع أحيانا أخرى، خاصة في حقل أوصافه وتشبيهاته النادرة.

المراجع والمصادر

[١] لم تكن الأندلس معروفة بهذا الإسم من قبل دخول العرب فاتحين بل كان تسمى بأسماء مختلفة، تبعا لمن كان يحكمها من الأمم. فقد سمّاها الأغريق "ابيريا" حين حكموها قبل الميلاد بنحو خمسمأة سنة. ولما استول عليها الرومان أول قرن الثالث الميلادي سمّوها " اسبانيا". وحين أغارت قبائل الواتدلي احتلوت و اطلقوا عليها–"واندالوسيا" أخذا من إسمهم. د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي الأندلسي، (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٩م)، ص ٢٩٣–٩٤

[٢] الموشح كلام منظوم أنيق،لم يلتزم في نظمه و وزنه النهج العروضي المعروف، الذي فيه اتفاق الوزن، و اتحاد القافية في كل القصيدة–كما هو معروف عند الأولين من النقاد و المحافظين من الآخرين. د. عبد العزيز بن عبد الله العوّاد، الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية (الرياض: المملكة العربية السعودية ١٩٨٢م)، ط١، ص ٢٨٤

[٣] ابن درّاج القسطلي (أحمد) (٩٥٨–١٠٣٠م) شاعر أندلسي ، امتاز بالمديح. عمل كاتبا للمنصور ابن أبي عامر. المنجد في اللغة والأعلام (بيروت: دار المشرق ٢٠٠٣م)، ط٤٠،ص٧

[٤] الدكتور أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة (القاهرة: دار المعارف بمصر ١٩٨٥م)، ص ٥؛ خير الدين الزركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٦م) ج٧، ص ١٣٠

[٥] و يكنى أيضاً بأبي الحسن، و لكن الأولى هي الأشهر. د. عبد العزيز بن عبد الله العوّاد، الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية (الرياض: المملكة العربية السعودية ١٩٨٢م)، ط١، ص ٣٧٣

[٦] د. شوقي ضيف، الفن و مذاهبه في الشعر العربي (القاهرة: دار المعارف ١٩٦٠م)، ط١٢، ص ٤١٩

[٧] ابن هانيء الأندلسي، ديوان (بيروت: دار صادر ١٨٨٦م)، ص ١٣١–١٣٩؛ د. شوقي ضيف، الفن و مذاهبه في الشعر العربي، ص ٤١٩–٤٢٠

[٨] ابن هانيء الاندلسي، ديوان، ص ١٦١–١٦٤، ٣٣٥–٣٤١

[٩] المعز لدين الله (معد بن المنصور) (٣١٩–٣٦٥هـ/٩٣١–٩٧٥م): رابع الخلفاء الفاطميين. خلّف أباه ٩٥٣م. احتل قائده جوهر القسطاس ٩٦٩م ، وأسس القاهرة التي غلبت عاصمة الفاطميين بعد أن استخلف بالكين بن زبري على أفريقية وانتقل إلى مصر، استولى على طرابلس وبيروت وهزم الإمبراطور البيزنطني. المنجد في اللغة والأعلام (بيروت:دار المشرق٢٠٠٣م)، ط٤٠،ص٥٣٧

[١٠] ابن هانيء الاندلسي، ديوان ، ص ١٩٢–٢٠٠

[١١] د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٣٤–٢٣٥؛ ابن هاني الأندلسي، ديوان، المقدمة، ص٦

[١٢] ابن هانيء الأندلسي، ديوان ، المقدمة، ص ٦

[١٣] المصدر السابق، ص ٦

[١٤] د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٣٣

[١٥] د. شوقي ضيف، الفن و مذاهبه في الشعر العربي، ص ٤٢٠

[١٦] ابن هانيء الأندلسي، ديوان، ص ٧؛ د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ص ٢٤٧

[١٧] د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٣٣-٢٣٤

[١٨] الدكتور عبد العزيز بن عبد الله العوّاد، الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية، ص ٤١٩

[١٩] المصدر السابق، ص ٣٩٦

[٢٠] الدكتور عبد العزيز بن عبد الله العوّاد، الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية (الرياض: مطابع بحر العلوم ١٩٨٢م)، ط١، ص ٣٩٨

[٢١] تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء، تحقيق الدكتور زاهد علي الهندي (مصر: مطبعة المعارف ١٣٥٣هـ)، القصيدة ٩، ص ١٥٠

[٢٢] المرجع السابق، القصيدة ٥٣، ص ٧٤٢

[٢٣] المرجع السابق، القصيدة ٢٤، ص ٣٦٥

[٢٤] المرجع السابق، القصيدة ٤١، ص ٥٦٠

[٢٥] المرجع السابق، القصيدة الأولي، ص ١٥

[٢٦] المرجع السابق، القصيدة ٩، ص ١٦١

[٢٧] ابن هانيء الأندلسي، ديوان، ص ٢٧٣

[٢٨] المصدر السابق، ص ١٢؛ د.شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول الإمارات و الشام (القاهرة: دار المعارف ١٩٨٤م) ، ص ٢٤٦

[٢٩] المصدر السابق، ص ٧٤

[٣٠] د.شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٤٧

[٣١] ابن هانيء الأندلسي، ديوان، ص ١٦١

[٣٢] المصدر السابق، ص ٣٤

[٣٣] المصدر السابق، ص ١٣، ١٥

[٣٤] د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٣٨–٢٣٩؛ ابن هانيء الأندلسي، ديوان، ص ١٩٢

[٣٥] ابن هانيء، ديوان، ص ٩٨

[٣٦] المصدر السابق، ص ٣٧٦

[٣٧] المصدر السابق، ص ٢٠٧

[٣٨] المصدر السابق، ص ١٩٢

[٣٩] المصدر السابق، ص ٣١٣

[٤٠] المصدر السابق، ص ٦١

[٤١] د. أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي،ص ٢٤١–٢٤٢؛ ابن هانيء، ديوان، ص ١٨٤

[٤٢] ابن هانيء ، ديوان، ص ١٨٥

[٤٣] المصدر السابق، ص ٢٧٦

[٤٤] المصدر السابق، ص ٢٤

[٤٥] المصدر السابق، ص ١٢

[٤٦] المصدر السابق، ص ١٣١

[٤٧] د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٤٥؛ ابن هانيء، ديوان، ص ٢٤١

[٤٩] أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٤٥

[٤٩] المصدر نفسه، ابن هانيء، ديوان، ص ٢١٤

[٥٠] د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، ص ٢٤٥

[٥١] ابن هانيء، ديوان، ص ٧٤

[٥٢] المصدر السابق، ص ٢٦٤

[٥٣] المصدر السابق، ص ٢٧٢

[٥٤] المصدر السابق، ص ١٢

[٥٥] المصدر السابق، ص ٣٥٢

[٥٦] المصدر السابق، ص ٣٥٢